الحكيم

قال تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[البقرة: ٢٦٩].

الاسم هو اسم « الحكيم » .

أيها القارىء الكريم ، أسماء الله الحسنى كثيرة ، وردت في الآثار الصحيحة أنها تسعة وتسعون اسماً ، وأسماء الله كلها حُسنى ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى موجود وواحد وكامل واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، كامل كمالاً مطلقاً ، ولكن بعض هذه الأسماء أقرب إلى العبد من بعضها الآخر ، فأقرب أسماء الله الحسنى إلى العباد اسم الرب ، لأنه ربهم ، قال تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

ويعني هذا الحُكم حُكم المربي ، حُكم الذي يعلم ، وحُكم الرحيم ، حُكم الحكيم ، واسم الحكيم هو من أقرب الأسماء إلى الإنسان كذلك بالإضافة إلى اسم « الرب » كما بينت قبل أسطر قليلة .

لماذا قدّمت هذه المقدمة ؟ لأنَّ الإنسان أحياناً يرى ما لا يُرضيه ، إذ يسوق الله له ما لا يسره ، وما لا يعجبه ، فإما أن يسخط على ربه ، وعلى قضائه وقدره ؛ فهو الجهل المطبق ، وإما أن يرضى عن ربه وعن قضائه وعن قدره فهو العلم السديد الرائع .

ولابد أن يعلم الإنسان أنه ما من شيء يقع في الكون منذ أن خُلق هذا الكون حتى نهايته إلا بإرادة الله ، لأنه إذا وقع شيء دون إرادته إذاً فليسَ الله هو القهار ، وليس هو الجبار ، وليس هو القوي ، وليس هو الغني ، ويكفي أن يقع شيء واحدٌ في الكون دون إرادته حتى تتعطل أسماؤه الحُسنى ، إذاً : لا يقع في الكون الذي هو ملكه ، ولا يقع في ملكه إلا ما قد أراده .

وإني لأستميح القارىء الكريم عذراً لأن هذه الفكرة أعيدها كثيراً ، ولأنَّ الله سبحانه وتعالى يعيد الحقائق الأساسية في القرآن كثيراً ، وأنت تقرأ الفاتحة في كل صلاة ، تقرؤها وتعيدها منذ أن كُلفت بالصلاة وحتى نهاية الأجل ، وتكررها عشرات المرات يومياً في صلاتك .

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة : ١ـ٢] .

ما من شيء وقع في الكون إلا أراده الله ، وإذا أراد الله شيئاً وقع ، وليسَ في الكون مسيطر إلا الله ، هذا هو التوحيد ، إذ ليس في الكون إلا يدٌ واحدة هي المسيطرة وهي الحكيمة وهي القديرة ، ترفع ، وتخفض ، وتُعطي ، وتمنع ، وتُعز ، وتُذل ، وتَبسُط وتقبض .

كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلّقة بالحكمة المطلقة ، حتى يتضح الأمر ؛ فقد يقول الإنسان شيئاً ليس مقتنعاً به إما بضغط ، أو بإغراء ، فإن قال كذا وكذا يرتقي ، وإن يقل كذا وكذا مع الضغط عليه ، فقد يكون قوله مجانباً للحِكمة ، لأنه وقع في شِباك الإغراء أو في شِباك الإكراه ، والإنسان ضعيف بين

الإغراء والإكراه ، فتارةً يُكره وتارةً يُغرى ، فإذا أُكره فَقَدَ الحِكمة ، وإذا رغب فَقَدَ الحِكمة ، إذاً ربما تصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد ضُغط عليه أو أغري بشيءٍ من حِطام الدنيا ، وقد يتصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد يكون جاهلاً ، فالطيشُ والحُمق والخرقُ يأتي من الجهل ، فأنت بين جهل وضغط وإغراء تفقد الحِكمة ، ففي حالات الجهل والضغط والرغبة كثيراً ما يجانب الإنسان الحِكمة ويفقدها .

والجهل والإكراه والرغبة هذه حالات تستحيل على جلال الله عز وجل ، فلا إله آخر يضغط ، وكل رغبة وجهل وإكراه يغري لِاعتبار له .

إذاً : أفعال الله سبحانه وتعالى كُلُّها متعلّقِة بالحِكمة ، والحِكمة عند ربنا عز وجل متعلّقة بالخير المُطلق .

ولتأخذوا عني ـ أيها القراء الكرام ـ هذه الكلمات القليلة : إنَّ كلَّ شيء وقع أراده الله ، وإن كل شيءٍ أراده الله وقع ، وإن أفعاله تتعلق بالحِكمة المُطلقة ، وإن حِكمتَهُ المطلقة تتعلق بالخير المطلق ، واللهِ لو أنّا فهمنا هذه الكلمات واستوعبناها وعقَلناها وعشنا معانيها لتلاشت كل الأحزان في حياتنا .

لكل شيء حقيقة ، « وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » [الترمذي من حديث جابر] ، فالغلط مجاله بين البشر ، أما في حق خالق البشر فهو يستحيل ، والذي يبدو لك غلطاً وخطأً وظُلماً هو عند الله حِكمة بالغة ، وإنني أضرب مثلاً :

فتاة نالت شهادة ثانوية وهي تبحث عن وظيفة ، هناك مسابقة لوظيفة معلمة فتقدمت إليها ، فطولبت بشهادة صحية فتوجهت إلى مستشفى حكومي لتفحص صدرها ، فجاءت النتيجة أنها مصابة بمرض السل ! بكت وبكت وبكى من حولها ، ومن حولها خافوا من العدوى فابتعدوا عنها ، وتركوها تأكل وحدها ، وأعطوها أدوات خاصة بها ، وتوجّسوا منها خيفة ، وازدادت بهذه العزلة ألماً إلى أن قررت أن تتوب إلى الله ، وأن تصلي وأن تتحجب ، ثم راجع أخوها المستشفى بعد حين ، فإذا هم يعتذرون إذ هذه النتيجة ليست لها بل لغيرها ، فهي سليمة! خطأ الموظف ، إذاً وظفه الله عز وجل كي تتوب هذه الفتاة .

وهناك أخت كريمة تحضر معنا الدروس في جامع النابلسي ، هكذا سمعت وعلمت أنها كانت معارةً إلى بلد نفطي للتدريس ، واختصاصها رياضيات ، عُيّنت في مدرسة في أطراف المملكة ، والمديرة أمرتها أن تُدرّس تفسيراً وفقهاً ، فقالت لها معتذرةً : اختصاصي رياضيات ، فكيف تريدينني أن أدخل إلى صف ثالث ثانوي وأدرسهنَّ تفسيراً وفقهاً ؟ وأنا لا أفقه شيئاً من هذه الموضوعات ، قالت لها : إما أن تدخلي وتدرسي هذه المواد أو نلغي عقدك ، فدخلت هذه المدرسة ، وفتحت كتاب التفسير ، وأول آيات التفسير آيات الحجاب ، ولم تكن الفتاة تؤمن بالحجاب فقرأت الآيات وقرأت التفاسير ، فانهمرت عيناها بالدموع : اعتذرت من الطالبات ، وقالت لهن : دعنني هذه الساعة مع نفسي ، واقرأن ما بدا لكن ، وكانت توبتها حينما أُجبرت أن تقرأ هذه الآيات ، وأن تُفسِّرها للطالبات ، إذاً حُمقُ هذه المديرة وظفه الله عز وجل لصالح هذه المُدرِّسة .

يعني كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادته متعلّقة بالحِكمة المطلقة ، وحِكمته متعلّقة بالخير المُطلق ، وهذه حادثةٌ من حوادث ، ولتعلم من قبل ومن بعد لو أن ورقة سقطت من شجرة فذلك لحِكمة بالغة . . فما قولنا فيما فوق هذه الحادثة ، الظلم في النفوس فقط ، والظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه ، ولذلك فكل قصة فيها عشرة فصول مثلاً ، فقد نعرف فصلاً واحداً فلا يكفي ، وقد نعرف فصلين أو ثلاثة أو أربعة وهذا لا يكفي ، فلسنا مؤهلين أن نحكُم على هذه القصة إلا إذا عرفنا كل الفصول .

إذاً : أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إليك ، اسم الرب واسم الحكيم وقد تتساءل : لماذا فلان يُعاني من هذه المتاعب في جسده ؟ . . فقُلْ لحِكمةٍ بالغة ولا تخف ، ولو كان لديك وقت طويل ونفَس طويل وبحث دقيق لمتابعة أمره لوجدت أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان .

قد يسأل آخر : لماذا فلان كان عقيماً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان مات في سن مبكرة ؟ لحِكمة بالغة . . لماذا فلان عاش عمراً مديداً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان كان غنياً ؟ لحِكمة بالغة . . ولماذا فلان كان فقيراً ؟ لحِكمة بالغة . . فأنا أذكر كل هذا وأنا واثق مما أقوله ، وأي شيء أعجبك أو لم يعجبك فقل : لابد من حِكمة بالغة ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يتصرّف بلا حِكمة ، لأنه عليم ، ولأنه واحد ، ولأنه موجود ، ولأنه كامل .

موجود ، فإذا قلت : أين الله ؟ . . فسؤالك يعني أنه غير موجود . . بل هو موجود .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

هو موجود وواحد ، وليس مع وجوده وجود ، وكامل ، ومن كماله أنه حكيم . . . هذه مقدمة .

وبعد ، فكلمة الحكيم وردت في القرآن الكريم ثمانياً وثلاثين مرة ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] .

وكذلك فهناك بحث قائم بذاته يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء إليه ، فحينما تأتي الأسماء مثنى مثنى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٠] .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ١٩] .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] .

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ١٠] .

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

[فصلت : ٤٢]

﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

هكذا جاءت الأسماء في سياق الآيات القرآنية فاحذر أن تلتبس

عليك الأمور ، لأن هذا مزلق خطير ؛ مثل أن تقول : حكيم لأنه عليم ، فلا يمكن في علم التوحيد أن يُعلّق اسم على اسم ، فحكيم لأنه حكيم ، وعليم لأنه عليم ، لا يفتقر اسم إلى اسم في أسماء الله الحسنى ، واسع وحكيم ، إذا قلت حكيم لأنه واسع ، لا . ثم لا . . واسع لأنه واسع وحكيم لأنه حكيم .

وكلمة حكيم وُصِف بها القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يونس : ١] .

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [يس : ١ـ٢] .

﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال بعض العلماء في تفسير كلمة الحكمة : « **إن الحِكمة إذا قرنت بكلمة الكتاب ، فهي سنة رسول الله ﷺ** » وهذا أروع تفسير ، وأدقّ تفصيل وأوضح تبيين هو كلام سيد المرسلين ﷺ ، والحِكمة أيضاً جُعلت أسلوباً في الدعوة إلى الله ، قال تعالى :

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والحِكمة يمكن أن يؤتاها الإنسان ، وأقول : لو أنَّ الله عز وجل آتاك أجمل امرأة في الأرض ولم يؤتِكَ الحِكمة لجعلتها أسوأ امرأة ، ولو أعطاك مال قارون ولم يؤتِكَ الحِكمة لبُدِّد هذا المال ولكان حسرةً

عليك يوم القيامة ، ولو أعطاك صِحةً رائعة ولم يؤتِكَ الحِكمة لاستهلكت هذه الصحة في سفساف الأمور ، ولو أعطاك أولاداً نجباء ولم تكن حكيماً لكانوا زادك إلى النار . فأي شيء إذا أُعطيته دون أن تعطىٰ معه حِكمة كان حسرةً عليك يوم القيامة ، ولهذا قال الله عز وجل :

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

فأنت بالحِكمة يمكن أن تكون أسعد الناس بدخلٍ قليل ، وبالحُمق تشقى بالدخل الكثير ، وبالحِكمة تَسعَد بزوجة من الدرجة الخامسة ، وبالحُمق تشقى بزوجة من الدرجة الأولى . بالحِكمة ترقى بأولادٍ ضِعاف ، وبالحُمق تسفل بأولادٍ نجباء ، نعم.. لا يكون الرفق في شيء إلا زانه ، ولا يُنزع من شيء إلا شانه .

لذلك أذكر وأكرر أن الله قد يؤتيك مال قارون وهو لا يحبك ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

[القصص : ٧٦]

آتاه الله المال وهو لا يحبه ، وقد تكون قوياً والله لا يحبك ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

إذاً : قد يؤتيك الله المال وهو لا يحبك ، وقد يؤتيك الله القوة

وهو لا يحبك ، أما إذا أحبك فعلاً فسيؤتيك العلم والحِكمة ، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[القصص : ١٤] .

فأنت من المؤمنين إن شاء الله تعالى فانظر بماذا تفضّلَ الله به عليك ، إن تفضّلَ الله عليكَ بالحِكمة والعلم فهذا العطاء من نوع عطاء الأنبياء ، وإن زادكَ مالاً فالحمدُ لله ، وإن زادك صحةً فالحمدُ لله ، وإن زادكَ قوةً فالحمدُ لله ، لكن الأصل أن تكون حكيماً عليماً .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : « **من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل لا يُسمى حكيماً** » . . « **وهذا المعنى قائم بنفسي منذ أمد طويل** » .

ولقد اجتمعت مرةً مع شخص يحمل شهادة الدكتوراه في التربية والدكتوراه في العلوم الفيزيائية ، فحسبته جمع المجد من طرفيه دكتوراه في التربية ، علوم إنسانية ، ودكتوراه في العلوم الفيزيائية ، وفي أثناء اللقاء أخبروني : أنه **لا** يصلي ، وهو في الخمسين ، والله الذي لا إله **إلا** هو سقط من عيني كما يسقط النجم إلى الأرض ، أوَ كلُّ هذا العِلم وأنتَ لا تُصلي ؟ فهذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده ؟ .

يقول الإمام الغزالي : « **من عرف جميع الأشياء ، ولم يعرف الله عز وجل لا يستحق أن يسمى حكيماً** » .

وأنا بدوري أُعبّر عن هذا المعنى على النحو التالي : إن الذكاء ذكاءان ، ذكاء جزئي وذكاء شمولي ، فهذا من حيث الذكاء الجزئي

طبيب متبحّر في العلوم دقيق الفهم لمّاح الحِكم ، قوي الحافظة ، ولكنه يعصي الله لأنه لم يُفكّر فيما بعد الموت ، ولأنه لم يُفكّر فيمن خلقه ، ولأنه لم يُفكّر في منهج هذا الخالق العظيم ، ولأنه لم يطمح إلى مرضاة الله عز وجل ، ولأنه لم يرَ عظمة الخلق ولم يرَ من خِلالها عظمة الخالق ، فهو مدموغ بالغباء ولو كان من أذكى الأذكياء .

إذاً حق أن نقول : هناك ذكاء جزئي يتعلق بالجزئيات ، وهناك ذكاء شمولي يتعلّق بالكليات ، فمن غفل عن ربه وخرج عن منهجه وانغمس في الشهوات ، ولو كان في اختصاصه في القِمة ، وفي فرعه العلمي في الأوج ، ولو حصَّلْ أعلى الشهادات ، فإن دمغة الغباء سمته الأولى .

والناس على ما هو معروف يهنِّىء بعضهم بعضاً دائماً ، فتهنئةٌ بشراء منزل ، وتهنئة بنيل منصب ، وتهنئة بنيل شهادة علمية ، وتهنئة بمولود ، وتهنئة بزواج ، وتهنئة بشراء مركبة ، وتهنئة بسفرة ببعثة إلى خارج بلدك . . أما أنا فوالله لا أرى أن كلمة التهنئة تُقال على حقيقتها إلا إذا اصطلحتَ مع الله حقاً وصدقاً .

كان بعض الشيوخ إذا رأى تلميذه قد اصطَلَحَ مع الله تماماً وأقبل عليه يقول له : هنيئاً لك يا ولدي .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٧] .

كيف تنساه ؟ وهذا بعض العارفين : يقول « **يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟** » ، هذا كلام بليغ ! وكذلك يقولون : « إذا كان الله معك فمن عليك ؟ ، وإذا كان عليك فمن معك ؟! » فهذا كلام أبلغ .

والسؤال المطروح الآن هو : إذا تعلّمت علماً ، فشرف المُتعلّم من شرف العِلم ، ولو تصورّت إنساناً يقرأ في كتاب أصول سرقة البنوك مثلاً ، فأنت تراه يقرأ كتاباً ويتعلّم ؛ ألا تحتقر هذا العلم ؟ ، ولو افترضناه كتاباً مؤلفاً حول طريقة تزوير العملة مثلاً! وهو عاكف على هذا الكتاب ويدرسه بنهم وشغف ، ويضع خطوطاً ويُلخِّص فقراته ، ألا تحتقر هذا الجهد كله ؟ بلى ، لأن هذا الموضوع دنيء وإجرامي .

إذاً : شرف المتعلّم من شرف العِلم الذي يتعلّمه ، وكلما ارتقى العِلم ارتقى المُتعلّم ، فمن الناس من يتعلم القوانين المتعلّقة بالفيزياء ، وهناك قوانين الكيمياء ، وقوانين الفَلَك ، وقوانين الجيولوجيا ، وقوانين التاريخ ، وقوانين النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الذرّة ، وعلم الفيزياء ، وعلم الكيمياء ، طبعاً الفيزياء صوت وحرارة وكهرباء ومغناطيس وضوء ، والكيمياء عضوية ولا عضوية فهذه كلها علوم قد تسمو بصاحبها .

فإذا كان المُتعلّم يعلو في نظر الناس كلما ارتقى علمُهُ ، إذ يُقال لك فلان يحمل اختصاصاً نادراً ، وفلان مثله ، في حين أن هناك خمسة آلاف حقوقي بلا عمل ، فهذا حائز على شهادة الحقوق ، والحقوق اختصاص رائع جداً ، ولكن لكثرة المتخصصين به ، ولعطالة أصحابه ربما رأيت هذا الفرع فرعاً سهلاً ، وكلما كان الفرع أصعب منالاً وأعظم فائدةً ، كان أعود على صاحبه نفعاً ، يطلب مثلاً ثمانين ألفاً بالشهر ، فهو ذو اختصاص نادر .

أما هذا الذي تعرف إلى الله فما حاله ؟ فهذا السؤال وجيه حقاً ،

إن الذي تعرف إلى بعض الحقائق عن بعض المخلوقات يرقى في نظر الناس ، فكيف إذا كان موضوع المعرفة هو الله ؟ فمثلاً إذا قرأت شعراً لأحد الشعراء ودرست الشعر وحللته ، العاطفة والخيال والأسلوب والأفكار الدقيقة وتسلسل الأفكار وعمقها وواقعيتها كنت مرموقاً عند أهل الاختصاص ، فكيف إذا حللت كلام الله عز وجل ، فلذلك كلما ارتقى اختصاصك ارتقت مكانتك ، فمن اشتغل بغير الله لا يُسمى حكيماً .

وما أكثر ما ذكرت أن كلَّ علم ممتع ، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع ، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع ومُسعد ، إن العلم بالله ـ وحده ـ هو العِلم المُمتع النافع المُسعد ، والاختصاص النادر هو العلم المُمتع النافع ، وأيّ علم مُمتع ، وأي كتاب إذا قرأته تستمتع به ، لأن العلم ممتع ، ونقل المعرفة عمل مقدّس ، وكلما ارتقيت بهذه المعرفة إلى المستوى الذي يُرضي الله عز وجل ارتفعت معه .

قال بعض العلماء : « **من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره** » وهل يمكن لإنسان يعرف الله أن يَسهرَ سهرةً إلى الساعة الواحدة ويكون الحديث خلالها عن الطعام مثلاً ، فيستهلك خمس ساعات من عمره بدداً أو في لعب النرد أو في الشطرنج ، أو الحديث عن زيد أو عبيد ، فمستحيل ذلك إلا عند صغار الهمم .

لكن « **من عرف الله عز وجل كان كلامه مخالفاً لكلام غيره** » ، كلامه مقدّس ، كلامه في الكُليّات ، وفي الأصول ، وفي الأهداف الكبرى ، وكلامه في السمو . . وكل إناء بالذي فيه ينضح .

كنت ضربت مثلاً ، هناك أوعية تعبأ من أعلاها ولها صنبور في

أسفلها ، فأنت لا تصدق أن يخرج من الصنبور سائل يخالف ما في هذا الإناء أبداً ، فإن عبأته ماء يخرج من أسفله ماء ، وإن عبأته لبناً تجد لبناً ، وإن عبأته ليموناً تلق ليموناً ، وإن عبأته مثلاً ماء زهر ، تجد ماء زهر ، وإن عبأته ماء آسناً ، أخرج ماء آسناً فكل إنسان له منهل يَنهَلُ منه وله ما يَخرُجُ منه ، والإنسان كلامه يتحدث عما فيه ، ونفسه وعاء امتلأ .

فإذا كانت ثقافة الإنسان حصاد مجلات وقصص ومسلسلات ، وتكلم ، تسمعه يقول لك : فلانة طُلقت ، وفلانة خانت زوجها ، ونحو ذلك إذ ليس عنده شيء آخر ، بل كل معلوماته مورد هذا الإناء الذي عبأه من أخبار هؤلاء الساقطين والساقطات ، فلو أراد أن يتحدث لما فاض إلا بما امتلأ .

فلو أن الإنسان عبأ وعاءَهُ من أخبار أصحاب رسول الله ﷺ وعبأه من دقائق السُّنّة المطهرة ، ومن بطولات من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام ، وعبأ وعاءَهُ من العلم الشريف الذي يرقى بالإنسان ، ثم قيل له تفضل وتكلّم ، فلن يتكلّم إلا بالحكم والدُّرر والقرآن والحديث والتفسير والموعظة الحسنة والحقائق العلمية المتألقة والمشاعر الرقيقة ، والمواقف النبيلة ، ولن يصدر عنه إلا الدر واللؤلؤ ، فهذا الذي قاله الأسلاف ملأ به وعاء عقله : وكل إناء بالذي فيه ينضح .

وأخطر ما في الموضوع من أين تنهل ؟ ومن أين تشرب ؟ وما الذي يدخل إلى أذنك ومنه إلى قلبك ؟ وما الذي يدخل من بصرك ومنه إلى قلبك ، لأن السمع والبصر نافذتان ، فما تقرأ يدل عليك من

أنت ؟ وما تسمعْ ؟ يخبر مَن أنت ؟ قُل لي من تُجالس أقُل لكَ من أنت ؟ وقل لي من تصحب أقُل لكَ من أنت ؟ ومن تصادق أقل لك من أنت ؟ فالمرء على دين خليله ، ومن شيخُك ، أقُل لكَ من أنت ؟ فهؤلاء مناهل .

وهناك منهل ماء صافٍ ، ومنهل ماء معسل ، ومنهل ماء مزهر ، ومنهل ماء آسن ، فإذا كان حديث الإنسان ساقطاً ، ومزاحه جنسياً رخيصاً ، وتعليقاته لاذعة ، وكلماته بذيئة ، فطابعها طابع المجاري الآسنة ، لأنه ينهل من مياه المجاري فإذا فاض بشيء فلن يخرج منه إلا ماء آسن تفوح منه رائحة الزنى والغدر والخيانة والأثرة والاستعلاء والعنجهية والقسوة ، ولذلك فالإنسان منهي أن يتحدث عن أمثال هؤلاء ، لأنَّ الحديث عن المنحرفين يقبض القلب ، وأما الحديث عن الصالحين فإنه يُعطّر المجلس .

« **رأس الحكمة مخافة الله تعالى** » ، إن لم تخف الله عز وجل فأنت لا تعرف من الحكمة شيئاً .

« **الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني** » [أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس] ، فالعاجز يعيش لحظته ، ويعيش حظوظه ، وميوله ، ورغباته ، أما الكيّس فيعيش حياة ما بعد الموت يُعِدُّ لها منذ الآن .

« **ما قلَّ وكفى خير مما كثُرَ وألهى** » ، يعني ما يكفيه لا ما يطغيه ، ولا ما يلهيه ، أجل ، ما يكفيه ، إذ غاية كل حاجاتك أن تكون صحيح البدن مكتفياً ، تقطُن في بيت ، الحاجات الأساسية فيه

موفورة ! هذا هو الغِنى ، أمّا أن تفهم الغِنى أن يزداد الرقم الذي تملكه ، فهذا ليس هو الغِنى .

قال عليه الصلاة والسلام : « **من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في بدنهِ عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها** » .

كُن ورعاً تكن أعبدَ الناس ، وكُن قنعاً تكُن أشكر الناس ، « ومن حُسنِ إسلام المرء تركُهُ مالا يعنيه » ، و« السعيد من وُعِظَ بغيره » ، و« الصمت حِكم وقليلٌ فاعِلُهُ » ، و« القناعة كنز لا يفنى » ، و« الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » ، والحقيقة هذه الحِكم مبذولةٌ بينَ أيدينا ، فيمكن أن تشتري كتاباً في الحديث الشريف ، فتجد الحكم كلها فيه ولكن بين أن تقتني الكتاب وتقرؤه شيء ، وأن تعيش هذه الحِكمة شيء آخر ، البطولة أن تعيش هذه الحِكم ، وأن تطبقها إلى واقع ومشاعر ومواقف وسلوك .

الآن نعود إلى اسم « الحكيم » بالشكل المنهجي ، لاسم الحكيم معانٍ ثلاثة أساسية :

المعنى الأول : اسم « الحكيم » على وزن فعيل ، بمعنى مُفعل تقول : جرح أليم بمعنى مؤلم ، وفعيل بمعنى مُفعل ، فحكيم بمعنى مُحكم ومعنى المُحكم المُتقن ، والمتقن هو المقدِّر التقدير الصحيح .

فلو أن إنساناً قص قطعة خشب مثلاً بأقل من اثني مليمتر فإنك تنزعج لأنها قصرت ، ولو كان تقديره حكيماً وصحيحاً لجاءت الصنعة مُحكمةً من كلمة مُحكم فهي متعلقة بالتقدير ، وكلما دقَّ التقدير أُحكِمت الصنعة .

تجد بعض الآلات غالية جداً ، ولا ترى فيها عيباً أبداً ولا نقصاً

ولا لميلمتر واحد ، فالآلات من الدرجة الخامسة ، تراها ذات عيوب كثيرة ، فيقال لك هذا النقص مثلاً لا يُؤثر ، ونقصه مقبول ، أو سلبيته طفيفة محتملة ، فهذه ليست صنعة مُحكمة ، إذ نرى الأجانب يأخذون عشرة أضعاف أو مئة ضعف عما نصنعه نحن ، وذلك لإتقان عملهم .

حدثني أخ يعمل في المنسوجات ، قال : إن آلة استقدمناها من بلد غربي نبيع الثوب كله من إنتاجها بمئتي ليرة ، والآلة نفسها في بلد آخر نشتري المتر الواحد بسبعمئة ليرة ! المتر الواحد من إنتاج هذه الآلة بسبعمئة ليرة في حين الثوب بأكمله بمئتي ليرة والآلة واحدة ، والفرق هو الإتقان .

فلذلك معنى حكيم أي مُحكِم ، ومعنى مُحكِم أي مُتقن ، وأصل الإتقان من دقة التقدير ، إذاً : ربنا عز وجل خلق كل شيء فقدره تقديراً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

وأنت عد إلى جسمك ، فالدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية ، إذا قلّت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريّات ويموت الإنسان ، وإذا زادت تنفجر الكريات ، من جعل نسبة الملح في الدم ثابتة ؟ الفضل لله عز وجل ، إذ إن الكُلية إذا زادت نسبة الملح في الدم تفرز الزائد ، وإذا قلّت تحتفظ وتدخر ، فالكُلية هي التي تَزِن السائل الدموي أو البلازما بميزان دقيق .

هناك هرمون التجلّط يُفرِزُهُ الكبد ، وهرمون التمييع ، من إفراز الهرمونين معاً ، ومن ثبات النسبة بينهما ثباتاً دقيقاً تنشأ ميوعة الدم وسيولته ، وقد قيل : لو زاد هرمون التجلّط عن الحد الذي رسمه الله

عز وجل لأصبح الدم كالوحل في الأوردة والشرايين ولمات الإنسان ، ولو زادت نسبة هرمون التمييع عن حدها الذي رسمه الله عز وجل لنزف دم الإنسان كله من جرح صغير .

لي صديق توفي رحمه الله تعالى ، زرته في المشفى ، فوجدت أمام فمه لصاقات طبية لا أبالغ قرابة ثمانية سنتمتر ، فقلت : خيراً إن شاء الله ، قال : عندي نقص في الصفائح الدموية ، والصفائح الدموية تماماً مثل أحجار البناء ، إذا حصل ثقب في البناء تسده ، وهذا سببه رعاف أذهب معه الصفائح لديه ، وكلما أزلت اللصاقات فالدم ينزف ، إذ لم يبق في دمه صفائح دموية ، وفي الميلمتر المكعب عادةً سبعمئة ألف صفيحة تقريباً ، وهذه الصفائح تسد أي خرق في الأوعية .

إذاً : ما هذه الحِكمة ؟ وهذه معلومات قديمة ؛ وإخوتنا الأطباء الذين يدرسون حديثاً ، يعرفون أشياء عجيبة ، إنها حكمة الله الخالق البارىء .

وهناك زُمر نسيجية ، أحدث رقم : ملياران ونصف مليار زُمرة نسيجية في العالم ، ولا يوجد إلا إنسان واحد في الأرض له زُمرة نسيجية تُشبه زمرتك ، وعلى النُّوَيَّة عدد كبير من الجينات المبرمجة عُرف منها حتى الآن ثمانمئة جينة فقط ! فإذاً ما معنى حكيم ؟ الحكيم يعني مُحكِم ، ومُحكِم بمعنى مُتقن ، والمُتقن هو الذي قدّرَ الشيء فأحسنَ تقديره ، قال تعالى :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

إذاً : معنى الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه ، هذا معنى قول الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [تبارك : ٣] .

وبعد ، انظر تر النملة في أكمل وضع ، والذبابة بأكمل وضع ، والفيل بأكمل وضع ، والمجرّة بأكمل وضع ، والذرّة بأكمل وضع ، وأيّ مخلوق بأكمل وضع هذا معنى الحكيم ، وهذا هو المعنى الأول ، الحكيم المُحكم .

وتفسير هذا الاسم :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٥ـ ٨] .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

هذا معنى الحكيم ، وسِرُّ الحكيم :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

ويسألونك مثلاً : هل قست ضغط عينك ؟ ما ضغط العين ؟ إنه شيء متقن ، إذ بالعين سائل ، وهذا السائل لا بد أن يتجدد ، فكيف يتجدد ؟ يصب عليه مورد وله فتحة في أسفله ، فإذا سُدت هذه الفتحة تحتقن العين ، ويزداد ضغطها فتضيق لمعة الشرايين المغذية لها ، وأطباء العيون يقيسون ضغط العين .

والدِقّة بالغة جداً ، فلقد حدثني أخ طبيب ؛ أنهم في أثناء عمليات القلب المفتوح يعطون بوتاسيوم بِنِسَب دقيقة جداً فلو زادت لمات المريض فوراً ، وقال لي : لو كنا نقوم بعملية لمريض وشخصت عيناه ومات فقد يقال : هناك خطأ بالبوتاسيوم ، أو هناك شوارد بالدم .

بل هناك دقائق بخلق الإنسان وهي أشياء فوق التصور ، وهذا أول معنى من معاني الحكيم .

المعنى الثاني : الحِكمة عبارة عن معرفة أفضل المعلومات بأفضل العلوم ، فهناك عِلمٌ مُطلق ، والإنسان مهما تعلّم فإنه يقف على شاطىء بحر العلم ، قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

مهما تعلّم العالم المؤمن وارتقى علمه فإنه يقول : لم تبتل بعد قدماي ببحر المعرفة .

ومن علامة العالِم الحقيقي أنه متواضعٌ ، وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً ، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : « **كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي** » ، فمن هو العليم عِلماً مُطلقاً ؟ الله لا غيره ، الحكيم تُطلق على ذي العِلم المُطلق : العِلم الذي لا يعتوره خلل ولا جهل ولا شائبة ، وما من إنسان يدّعي أنه بلغ العلم المُطلق ، حتى في الحِرَف والمِهَن ، وحتى الأطباء والعُلماء والمُهندسون ، يرتكبون أغلاطاً كبيرة جداً ، أما العِلم المُطلق فهو لله عز وجل ، ولهذا يقول الإمام الغزالي « **لا يعرف اللهَ إلا الله** » .

المعنى الثالث : الحكيم هو الذي يتنزّه عن فِعل ما لا ينبغي ، يعني هو الذي يضع الشيء المُناسب بالقَدر المُناسب وفي الوقت

المُناسب وبالمكان المُناسب ، فهذا معنى الحكيم ، إذ لا نستطيع أن ننطق بكلمة ولا حرف زيادة عما يجب ، فأحياناً نضع الشيء المُناسب ولكن بحجم غير مُناسب ، وأحياناً أخرى نضع الشيء المُناسب بالقدْر المُناسب وفي وقتٍ غير مُناسب ، وكذلك أحياناً نضع الشيء المُناسب بالقدر المُناسب وفي الوقت المُناسب وفي مكان غير مُناسب ، فالحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبالمكان الذي ينبغي ، فهذا هو الحكيم .

وبعد ، فما حظك ـ أيها الإنسان ـ من اسم الحكيم ؟ إن الحكيم من الأسماء التي يمكن أن يتحلّى بها الإنسان انطلاقاً من المقولة : **تخلقوا بأخلاق الله** .

فالمؤمن الحق حكيم ، فحِكمَتُهُ من أين تأتي ؟ ومن أين يستقي حِكمَتَهُ ؟ من معرفته بالله . . فإن كان لديك آلة ، معقدّة جداً ، ولديك تعليمات دقيقة عنها فأنت تكون حكيماً لو نفذت هذه التعليمات التي هي من عند الصانع ، فالقضية سهلة جداً ، وإذا قرأت القرآن وفهمته ، وفهمت السُّنّة المُطهرة فأنت بمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل وأمرَ النبي ﷺ فأنت حكيم ، فمثلاً ، غضُّ البصر حِكمة بالغة ، فأنت إذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فلابد أن تبقى في حياتك امرأة واحدة ، وليس مسموح لك غير زوجتك ، والحِكمة تقول : إنك تُقبل على هذه الزوجة إقبالاً يجعل الود بينكما متنامياً ، فلو كانت لك منافذ أخرى لنشأت في البيت بعض المتاعب الزوجية .

وهناك نقطة مهمة جداً ، وهي قاعدة في المنطق وهي : « **الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به** » فيمكن أن نأتي ببدوي ونعطيه سيارة

من أحدث السيارات ، وهو سائق ماهر ، يتمتع بسرعتها وتكييفها وصوتها الناعم ، وبكل ميزات هذه السيارة وهو لا يفقه شيئاً من أساليب صناعتها ، واليوم صار عند كل الناس أجهزة متقدمة كثيرة فالذي عنده مكيّف مثلاً هل يعرف مبدأ عمله ؟ إنه يكتفي بأن يضغط المفتاح ثم يقول لك : تكيّفنا ، والذي عنده براد هل يعرف مبدأ عمله ؟ ومن يركب طائرة وهي خلاصة علم البشرية كلها ؛ وكل من سافر فيها يقول لك : حلقنا على ارتفاع أربعين ألف قدم ، وأكلنا طعاماً ساخناً ، ورأينا الغيوم . . فالانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ، فأنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل سواء أعرفت حِكمَتَهُ أم لم تعرف ؟ أتعمقت في تحليلها أم لم تتعمق ؟ تقطف ثمارها كلها ، هذا الذي أريد أن أقوله لكم . . أَمَرَكَ بغضّ البصر فأطعت ، وأَمَرَكَ أن تكون صادقاً ، والحِكمة كلها في الصدق ، وكلما كنت صادقاً عند الناس ارتفع شأنك فشعرت بمكانة الرجل الصادق فأنت رأسُكَ مرفوع .

ذكرت قصة فيما سبق ، أعدتُها وكررتها مراراً لأن فيها عبرةً بالغةً وهي أن سائق سيارة رأى امرأة ملفعة بعباءة فأشارت إليه فوقف ، والسيارة من سيارات الأجرة طبعاً ، قالت له : خذني إلى المكان الفلاني وفي منتصف الطريق خلعت ما عليها ، وأعطته مبلغاً بالعملة الصعبة كبيراً جداً ، وقالت : خذه واقض حاجتي ، أخذ المبلغ الضخم وقضى حاجتها وحاجته ، وأعادها إلى مكان الانطلاق ، وأعطته رسالة ، فقرأها وصُدِم ، إذ هنأته على أنه أصبح عضواً في نادي الإيدز ، إنها مصابة بهذا المرض الخبيث ، وتريد أن تنتقم من الناس جميعاً ، ومعها عملة مزورة أيضاً ، فذهب ليبدل هذا المبلغ

بالعملة المحلية ، فوقع تحت قبضة العدالة ! فقولوا بربكم : أيمكن لمؤمن أن يقع في هذا الفخ ؟ ذاك مستحيل ، إنه يخاف من الله . . ولا بد من صرفها بصورة من الصور .

فأنت حينما تُطبّق أمر الله حكيم ، دون لف أو مواربة أو تعقيدات ، فالله أمرني ألا أكذب فلا أكذب ، وألا أغش فلا أغش ، أما تحليلات الغش : فهناك قانون اقتصادي ، تروج به الدول الغنية بضاعتها فتعطي قروضاً للدول الفقيرة حتى ينشأ عندها قوة شرائية ، ثم بعد ذلك تقع تلك الدولة تحت نير الديون للدول الكبرى فتستغلها أبشع استغلال ، لكن المسلم عندما يؤدي زكاة ماله ، وكل غني يؤدي زكاة ماله كذلك ، فينفرج الفقير ويصير ذا مال ويتمكن من أن يشتري قميصاً وبزّة وحذاء وحاجات زائدة وسيوسع على أهل بيته ،دون أن يبتز أحداً أو يحمل أحداً ديوناً ، ومن جهة أخرى عندما دفعت زكاة مالك قطفت كل ثمار الزكاة ، فالفقير صار بخير وأنت بخير ، ونلت ثواب الله الجزيل .

مؤلف غربي اسمه « **ألكسي كارليل** » ألّفَ كتاباً (الإنسان ذلك المجهول) وبعد بحث طويل وجد أن نظام البشر لا يصلح إلا بزوجة واحدة ، شريطة أن يقصر الرجل طرفه عليها أي : أن يَغُضّ بصره ، فأنت دون تعمق ودون أن تقرأ الكتب ، حينما تَغُضَّ بصرك ملتزماً بأمر الله تقطف كل ثمار هذه الحِكمة ، فالإنسان يجب أن يكون حكيماً ، وكيف يكون حكيماً ؟ يكفي أن يُطبّق أمر الله وأمر رسوله ﷺ فقط .

اسأل طبيباً يحدثك عشر ساعات عن الاعتدال بالطعام والشراب ،

فالمؤمن دون أن يفهم كل هذه التفصيلات ، فهو يعرف أننا قومٌ لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع . . . انتهى الأمر ، هذا هو الطب الوقائي كله ، إذاً يمكنك أن تقطف ثمار كل المعارف بلا تعمُّق . . حينما تطبق أمرَ الله ، إذاً مَن هو الحكيم ؟ هو الذي طبّق تعليمات الصانع ، هذا هو الحكيم .

أحياناً يكون له موقف ليس فيه تعليمات ، إذ ينشأ ظرف ليس فيه نص آية ولا حديث حول هذا الموقف العارض ، فالحِكمة تأتيك إلهاماً من الله . إذاً إما أن تكون الحكمة في أساسها نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً تُطبِّقُهُ فتغدو حكيماً ، وإما أن تكون الحِكمة إلهاماً يُلقى في قلبك ، لأنك تطلب رضاء الله عز وجل ، وتتكلم الكلام المُناسب في الوقت المُناسب ، مع من يُناسبُ في المكان المُناسب : تعطي وتمنع ، وتغضب وترضى ، وتصالح أو لا تصالح ، فهذه المواقف المتجددة والتي ليس لها بين النصوص نص واضح متعلّق بها ، تصل من الملائكة حينما يلقون في روع الإنسان بعض الإلهامات ، قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

هذا وحيُ إلهام وليس بوحي رسالة ، فأحياناً يقول لك : لم ذهبت وأنت لا تعرف ؟ فالله عز وجل يسوق لك الخير الكثير من حيث لا تدري ، أو يرد عنك أذىً أو شراً من حيث لا تدري أيضاً ، فهذه هي الحِكمة ، فكن مع الله دائماً ، فإن واجهت موقفاً ليس فيه نص لتتصرف فالله عز وجل يُلهِمُكَ الصواب ، وهذا عين دعاء الصديق :

« اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه » .

إذاً أنت تكون حكيماً باتباع أمر الله وأمر النبي ﷺ ، وحيثما تشعر بانقباض أو انشراح فهذا نوع من إلهام الله عز وجل لك ، والإنسان كلما كان أكثر إيماناً كان أكثر حِكمةً ، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت حِكمته من أعلى مستوى ، لأنه قريب مباشرة من الله عز وجل ، ومن الناس من يمشي في طريق مليء بالحفر والأكمات ، والحشرات المؤذية ، وعلى جانبيه أشجار ثمارها يانعة ، فلو أن لديه مصباحاً كاشفاً فهل يمكن أن يخطىء ؟ لا إذ بالمصباح الكاشف يرى الحفرة فيتجنبها ، ويرى الأكمة فيبتعد عنها ، ويرى الثمرة فيأكلها ، ويرى الحشرة فيقتلها ، فمن أين يأتي الحمق ؟ من العمى . قال تعالى :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

إني لأرى أحياناً أن إنساناً ما يطلّق زوجته بِحُمق ، وبِلا أسباب موجبة في ساعة غضب ، وهذا عَمى حقاً ، فإذاً الحمق أساسه العَمَى وهو يُردي ، والحِكمة أساسها البصيرة في القلب ، ونتائجها تردي :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ـ١٢٦] .

كان أعمى في الدنيا ، فنسي أمر الله فآل إلى زوايا النسيان والإهمال ، أما نحن المؤمنين إن شاء الله ، فحِكمتُنا في اتّباع القرآن الكريم ، وفي اتّباع السنة المطهرة ، وكلما كنا أكثر إخلاصاً وأكثر

ورعاً واستقامةً ألهمنا الله رشدنا ، اللهم ألهمنا رشدنا ، وخذ بنواصينا إلى المواقف الحكيمة .

أخيراً ، إليكم أيها القراء الكرام قصة لعلكم تعرفونها جميعاً ، حصلت منذ خمسين سنة لإمام وخطيب جامع الورد في دمشق ، إذ رأى في المنام النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال له عليه الصلاة والسلام : في المنام قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة ، وجاره سمّان ، وهو الخطيب والعالم فتمنى لو أنه بمكان هذا الجار ، طرق باب جاره ، ودخل عليه وقال له : لك عندي بشارة ، ولكن والله لا أقولها لك إلا إذا أطلعتني على حقيقة أمرك ، وماذا فعلت حتى حللت هذه المنزلة عند الله عز وجل ؟ فامتنع عن الإجابة وبعد إلحاح شديد ، قال : لقد تزوجت امرأة وفي الشهر الخامس تبيّن لي أنها حامل ، وحملها الطبيعي في الشهر التاسع ، فعلمت أنها قد زلّت قدمها ، فكان بإمكاني أن أُطلِّقَها ، وأن أفضحها ، وأن أسحقها ، وأنا محق في ذلك ، والناس يقروني ، فجئت بمولّدة ، فولدت غلاماً ، وحملته تحت عباءتي ، ودخلت إلى جامع الورد بعد أن كبّر الإمام لصلاة الفجر ، ووضعت هذا الغلام خلف الباب ، واقتديت بالإمام ، فلما انتهينا من الصلاة بكى المولود ، فتحلّق المصلون حوله واندسست بينهم ، قلت : ما الخبر ؟ قالوا : مولود ، فقلت : هاتوه أنا أتكفله ، فأخذته أمام أهل الحي على أنني قد تبنّيته ، ودفعه لأمه التي ولدته قبل ساعات ، فهذا تصرف أهل التقوى ، وهذا تصرف أهل الحكمة ، وإنه لرجل حكيم .

* * *